المثقف العربي. إشكالية البحث عن النموذج

د. ساسي سفيان
جامعة الطارف

الملخص
يطرح الباحث في هذه الورقة البحثية موضوع المثقف في التراث السوسيولوجي الغربي والعربي، بتعقب محطات التوثب والسكون التي رافقت المثقف في انطولوجيته تجاه موضوعه (الواقع) .
فإنتاج فكر غربي/عربي يؤدي بنا إلى التساؤل حول العقل ذاته وكيفية تعامله مع الواقع السوسيولوجي الذي أنتج من خلاله، متى نضج العقل الغربي/العربي في قراءة قضاياه ومن خلاله المثقف لأول مرة؟ وما العراقيل والمثبطات التي واجهته؟ وهل هذا العقل، عاش الشقاء التاريخي، عاش حالة الغيبوبة/اللاوعي؟ هل كان حاضرا أم بمنأى عن بشائر النهضة والتنوير العربي كما جاراها العقل الغربي ضمن خصوصيته؟ هل خاض مشروع تنمية حقيقية؟ هل كان عقل إبستيمي، فهم تضاريس الخصوصية المجتمعية العربية في لججها وتعقيداتها، أم أنه عقل عاق أو متكبر، ناشطا أم عاطلا عن العمل، عن التفكير؟ هل بناء البيت الفكري/الثقافي العربي اقتصر على أهل البيت أنفسهم؟ ما هي الأوراق والملفات التي أدركها أو أخفقها العقل العربي في الحوار مع نفسه ومع الآخر المختلف عنه ؟
الكلمات الدالة: المثقف، النخبة العربية، الفعل الثقافي، العقل العربي، الاختلاف، الوعي.

Abstract
The researcher in studying for the subject of the intellectual in the Arab and western sociological heritage, the follow-up to the movement and sleep stations which accompanied the intellectual in its own ontology toward the theme.
The production of Western thought or Arab leads us to wonder about the mind and how to deal with the social reality from which produced, when the maturity of the mind reading and through the intellectual issues for the first time? What are the obstacles and disincentives faced? Is this the reason, lived historical misery, lived a coma or unconscious? Do you was present or away from the promise of the Arab renaissance and enlightenment as seen by the Western mind within his privacy? Do you fought real development project? Do you mind marafi, understand the privacy policy of the Arab community in its complexity, or that the mind impeded or arrogant, an activist or unemployed, thinking about? Are you building the house of the Arab intellectual and cultural confined to its people themselves? What are the papers and files of the Arab mind in the dialog with the other, however, boast about؟

Keywords: the Intellectual, the Arab elite, cultural act, the Arab mind, difference, awareness.

المقدمة

عرف الفكر البشري منذ القديم اهتماما بالمعرفة كموضوع للتحليل والوصف ونشأ مبحث خاص بها منذ الإغريق هو نظرية المعرفة، تساءلت الفلسفة من خلاله في معنى أن يعرف الإنسان وما إذا كان ممكنا أن يعرف، والأدوات التي يتوسل بها المعرفة (العقل أم الحس أم الحدس) والحدود التي يمكن أن تبلغها قدرته على المعرفة، نسبية أم مطلقة؟ ووجوب المعرفة والتفكير، حتى نحاكي العالم الخارجي الطبيعي والإنساني بشكل معقول؟

ارتبطت كل هذه المساءلات باحتكاك الذات العارفة/المفكرة، تفاعلها ونضالها باستمرار في عالم الاستكشاف والتحليل والفهم لمختلف الموجودات والظواهر والعلاقات بينها، محاولة وصف الواقع وصفا أمينا في حيز من الإشكاليات والمساءلات والمخاوف واللافهم أحيانا الذي يحيط بالذات العارفة، في نشوة البحث عن حقيقة طهرانية تلهم الإنسانية منجز –معقول ومقبول– حول هذا العالم الخارجي في كافة لججه وتعقيداته.

إذن ما وضعية المثقف العربي من خلال الممارسة اليومية للفعل الثقافي العربي إن وجد في هذه المرحلة ؟ كيف يمارس هذا الفعل؟ ما هي أشكاله واتجاهاته؟ ما مرجعيته؟ ما هي أزمته الفعلية وهل المنجز الثقافي العربي مشتغل بالهم العربي العام؟ أم منشغل عنه؟ ولماذا؟، هل النخبة المثقفة العربية تتصرف بمسؤولية في عملية إنتاج الفكر؟ أم أنها حاكم لا يحكم وهذا قدرها التاريخي المقرر منذ زمن؟ ثم ما هو النموذج المفضل للنخبة المثقفة العربية؟

أولا. سوسيولوجيا المثقف

صحيح إن هذه الإشكالات الفكرية، لا تدعي هذه الدراسة المغامرة باختراقها والإجابة عليها في جزئياتها، لكنها بالتأكيد تفتح في نفسية الباحثين مزيدا من قوة الدفع وتواصل الجهد في طلب الحقيقة، وحتى لا نضيع في متاهات الفضول العلمي وفتنته، ثمة مبررات ودوافع محددة سيطرت على رغبة الباحث في اختيار هذا الموضوع حيث لم يستطع بذلك أحد (فيلسوف، عالم، باحث، حكيم...) أن يحول العالم الخارجي إلى موضوع للتأمل ولإنتاج المنطوقات، الأفكار، الصيغ، التصورات والأنساق التعبيرية وتقديم الرموز والمعاني، كما استطاع المثقف ذلك، محولا عملية التفكير وهي نشاط ذاتي، إلى ممارسة اجتماعية (مثاقفة) تنشأ عنها بنيات ذهنية وحقائق مادية موضوعية نافعة ومجربة، فنظرتنا المنظمة إلى الكون والمجتمع والمؤسسات وظواهر الوجود المختلفة تدين إلى الفعالية المعرفية التي مارسها هذا الكائن المتميز عبر التاريخ، إنها مساهمته الكبرى – في المجتمع والحضارة والتاريخ– في تحقيق الإدراك الإنساني للعالم، ومع ذلك كله لم يستطع المثقف أن يحول ذاته، كينونته الفكرية، حرفته العقلية، بضاعته المعرفية، إلى موضوع للتفكير والتأمل بالقدر الذي فعله مع موضوعات العالم الخارجي الأخرى، وهنا وجه المفارقة : أين يكون العارف هو آخر من يعرف نفسه، إذ لا نكاد نعثر على رصيد كاف من التصورات المعرفية لفئة الفعلة الفكريين/المثقفين حول ذواتهم، يوازي ما تم انجازه حول فعلة وفئات وطبقات وموضوعات أخرى من المجتمع والعالم الخارجي.

كل شيء في الوجود بدأ بفكرة ثم تبلورت الفكرة إلى إمكانية، ثم إلى هدف، ثم إلى فعل، حتى أصبحت حقيقة، فالطائرة بدأت بفكرة في ذهن الإخوة جويس (Joyce Brothers)، مدينة ديزني بدأت بفكرة في ذهن والت ديزني (Walt Disney)، ثم أصبحت حقيقة يزورها ملايين من الناس سنويا، كل شيء من الصواريخ والطائرات والسفن والسيارات والأجهزة الإلكترونية والطبية والرياضية، كل شيء في كل مجال بدأ بفكرة، لأن الفكرة هي جذر كل شيء فالأفكار الإيجابية أدت إلى الاكتشافات والتقدم الذي نراه ونستخدمه في العالم، والأفكار السلبية أدت إلى القتل والنصب والاستغلال والضياع والأمراض النفسية والعضوية وقد عبرت كلية الطب في سان فرانسيسكو بأن معظم الأمراض ترجع إلى الفكر والتفكير.

يعرف الفكر سوسيولوجيا، بأنه أداة من أدوات الحياة الاجتماعية التي يتعامل بها الأفراد المنتمون إلى بنية اجتماعية معينة ويتحاورون ويبنون على أساسه مصالحهم المشتركة، ويتبادلون بواسطته العادات والقيم والأعراف ويعبرون بفكرهم عن رؤاهم المختلفة للواقع، ضمن مجال اتصال محدد، قائم على صياغة الممارسات التي تتقولب في أشكال مختلفة (سياسية، اقتصادية، ثقافية) وتقديم الرموز وتشكيل الاستعدادات التعبيرية المعقولة والمقبولة .

عند هذا المستوى، تبدو مهمة الأفكار مهمة حيوية إن تمكنت من الإيفاء بحق المجتمع من المعرفة المضمونة وتفسير الوقائع الاجتماعية بصدق من خلال السعي إلى النزول إلى الواقع وفهم المجتمع من الداخل وبالتالي القيام بالمهام الحراكية التاريخية والمجتمعية التي خولها أهل الفكر لأنفسهم - كنخبة – فلقد أجمع الدارسين أن" حكومة المستقبل "التي ستتشكل على المدى القريب أو البعيد، لن تكون حكومة أشخاص عاديين، إنها حكومة التكنوقراطيين أو ديكتاتورية الأفكار"[1]، سلطة هؤلاء الأشخاص المتذهنين الذين يكدحون بأدمغتهم، فبعد أن ثبت فشل وارتفاع كلفة تسيير البشر بالقوى المادية، أصبح اليوم لا مفر من تسييرهم عبر قناعاتهم الفكرية الذاتية (الداخلية) .

دلنا الدرس التاريخي أن مسألة الأفكار والإبداع والخيال العلمي واكتشاف المجهول وكشف عورات النظام الاجتماعي القائم، أثبتت حينا من الدهر في لوائح الحضارات والمجتمعات الإنسانية القديمة والحديثة، مفهومية تقول أن المجتمع الإنساني لا غنى له عن الأشخاص الذين يستطيعون القيام بجهود توعوية تلقائية خلاقة، إنهم الرجال الذين تحتاجهم المجتمعات الإنسانية في تطلعاتها الحضارية وآمالها التاريخية لمواجهة الحياة مواجهة إيجابية فهاجس دس الأنف في كل شيء "كما يقول سارتر، وهاجس الرفض والنقد والقولبة والتغيير تعتبر شيئا مسكونا بقوة في ذهنهم وخياراتهم، راسخا في دماء كل انتلجانسيات ومثقفي العالم.

1. استقراء تاريخ العقل الغربي

إن قضية المثقفين هي هذه بالذات، فالمثقفون والمستنيرون في كل التجارب الإنسانية إما ناجحون أو فاشلون، إما مشوقون أو مملون، إما مثمرون أو عقيمون كما يقول كارل بوبر(1902– 1994) (Karl R. Popper)، وإذا كان شغل المثقف، كما تجسد تاريخيا، في ضروب الإنتاج الفكري والعرفاني المبدع والممتع، المعقول والمقبول، لكي ينمي وعي الجماهير بتاريخها وإصلاحها الأخلاقي والديني والاجتماعي والسياسي، كما هو الحال في أثينا خلال القرن الخامس وأوربا خلال القرن الثامن عشر (فلاسفة التنوير) إن هؤلاء الموهوبين – المختارين هم وغيرهم، لم يكونوا بعيدين عن الرقيب والحسيب، وأعني خط المهاترة والقلق ومحاولات الكنس والإزاحة من النزّال والطريق.

استقراء تاريخ العقل الغربي، يكشف أن المحاولات الأولى لفهم الواقع الأوربي بإطاره العام ولدور الفكر في تفسيره وتغييره، قد ظهرت متزامنة مع مصابيح الأنوار التي اشتعلت في أوربا (الثورة الفرنسية 1789)، فإثر التغيرات التي طرأت على البنية القروسطية[2]، وطرح المشروع البورجوازي الناشئ عن عهد الثورة الصناعية، بديلا تاريخيا في القرن الثامن عشر،ثم قيام المحاولات الراديكالية لدحض الفكر المكنس، المهتز بالأفكار الخرافية الملعونة، هذا الفكر الذي عمر طويلا وأخر حينا كبيرا من تطلعات الإنسان والمجتمع الأوروبي على حد سواء(المتاجرة في الجنة، الزهد بقيمة الدنيا وأنها ضد الله، تحريم البحث عن المعرفة خارج أمر تفسير الرهبان للكتاب المقدس، المتاجرة بصكوك الغفران).

فبعد أن ذاقت الذات المفكرة ويلات هذا الطاعون التاريخي، خطت إلى عالم الأنوار، باحثة عن ما يلاءم هذا الوضع الجديد الذي يعني أهمية الفكر في تغيير الواقع وأهمية المعرفة في تنوير المجتمع وإمتاعه، لقد أصبح الفكر، لذة حسية تستشعر من خلاله الذات المفكرة الغربية إحساسها بوجودها الحيوي –الأنطولوجي– فقولبت سنين الإحباط واليأس إلى تجربة إنسانية تقول بأنه" لا تدخل للسماء في العمران الأرضي ولا سلطان على العقل إلا العقل، وتوالت بعد ذلك سنين ربيع الذهب في حياة الذات المفكرة الغربية بعد الإعلان عن ثورة كروميل البريطانية"[3] (Cromwell) ووثيقة الماغنا كارتا البرلمانية البريطانية [4] (Magna Carta) وإعلان الثورة الأمريكية لحقوق الإنسان، لقد أصبحت كل هذه الثورات علامة مسجلة إيجابا في تاريخ الذات المفكرة الغربية والتي ستشكل في المستقبل القريب عقدة التمركز الغربي،عقدة التفوق والإستعلائية تطرح نفسها منذ الوهلة الأولى، فلقد وقفت الأنتلجانسيا الأوربية- كما أوضحنا - موقفا حزما في مهمة محترفة وصعبة كانت محفوفة بالمخاطر عنيت فيها بحالة الإنسانية وبؤسها وأثبتت حينا من الدهر في لوائح كل انتلجانسيات العالم، مفهوما يقول أن العقل الغربي، لم يخلق لأجل الخبز والزبد، بل لأجل التغيير والبحث عن الطريق الأفضل، وهنا تجلت قيمة الوعي (الفكر الإبستيمي) في تجربة العارف الغربي إنه ليس بالوعي المستأجر الذي يتخلق ويتشكل بالإكراميات والصدقات من تجارب الآخرين بل وعي (فكر) مهموم بالخصوصية التاريخية والثقافية والاجتماعية والنفسية الغربية ناضلت من أجله الذات المفكرة الغربية فانتصرت.

لقد وضحنا أن ملامح وضعية النخبة/الإنتلجانسيا على مستوى الآخر(الغربي) أنها لم تكتف بمسايرة الأنظمة الاجتماعية، بل ناقشت آلياتها -من الداخل – ضمن سلسلة من المناورات التاريخية، فالبنية الرأسمالية التي عقبت الثورة الاجتماعية الشاملة على

الإقطاع لم تكن هي الأخرى أحسن من سابقتها، بما أحدثته من تمزق اجتماعي/طبقي غير ملائم: طبقة المالكين (البورجوازيين) وطبقة المنتجين (البرولتياريا)، وعندما جاءت التجربة الاشتراكية والتف حولها كوكبة من الفلاسفة والمثقفين الثوار، إلا أن التاريخ لم يكتب لها عمرا طويلا، فرغم أن الفكر اليساري أمنى الجماهير بالكثير من الأمنيات ولكنه انتهى بفلسفة واهمة، خانت مبادئها وأجهضت مشروعها، نتيجة تقديم "أهل الثقة والمحاباة قبل أهل العلم والمعرفة" وانتهت الاشتراكية بحالة الانتفاضات الشعبية المسحوقة بالخبز والدم التي قال بها الزعيم الشيوعي تروتسكي (ليون تروتسكي) (1879–1940) (L.Trotsky) "الشيوعية الحمراء" فلقد وضح صانع البيروسترويكا السوفياتية الشيوعية"[5]، ميخائيل غورباتشوف (Mikhail Sergeyevich Gorbachev)، الأزمة بأنها أزمة الأفكار في النهاية .

اليوم وبعد مضي زمن الثنائية القطبية وبروز معالم النظام الدولي الجديد وحيد القطبية، ينتج العقل الغربي، لوحة تاريخية أكبر بكثير من لوحة الماضي، إنها لوحة الكونية والكوكبية والشمولية، يقدر فيها الجميع مستقبل الجميع،ويخترع فيها الجميع ثقافة الجميع، ولا ندري إن كان حقا طريق العيش معا مختلفون ومتساوون في هذا الكوكب ممكنا ؟ إنها الأفكار من جديد الأفكار التي كانت ولا تزال عكاز هذه الذات المفكرة، بعد عمر طويل وشاق، وهي تبحث عن الطريق الأفضل بسلاح العقل والعقل وحده

لاشك أن العرض الكرونولوجي للإطار العام الذي نشط من خلاله العقل الغربي وتفكيك الملابسات التاريخية والتعقيدات المتباينة التي رافقت تكوينه، يعكس بوضوح خصوصية متفردة ومتميزة مختلفة عن أي نموذج، من هذا المنطلق حري بنا أن نسأل بنية العقل العربي في حمأة مزيجية تجمع بين التاريخي والحضاري والثقافي.

2. استقراء تاريخ العقل العربي

يتفق أغلب المهتمين والدارسين أن العقل العربي، عاش تناقضات استفحلت في خضم تحولات وانتقالات تاريخية جرت في ظروف عربية متخلخلة زمانيا ومكانيا، يصعب معه تحديد :متى ولد العقل العربي ومن خلاله المثقف العربي لأول مرة؟ وهل أنتجت أزمة المجتمع العربي نخبة مثقفة عربية؟ هل بناء البيت الفكري/الثقافي العربي اقتصر على أهل البيت أنفسهم؟ أهل الدار؟ ما هي الأوراق والملفات التي أدركها أو أخفقها العقل العربي في الحوار مع نفسه ومع الآخر المختلف عنه؟ وإذا كان العقل العربي قد أخفق في ذلك الحوار، لهوس تاريخاني اسمه إعجاب المنهزم بالمنتصر، هل أدرك خطأه اليوم؟ وأعلن طريقه المشروع، نحو نفسه ونحو تراثه، ما مشروعه في كل هذا وذاك؟ وإذا أتينا من البداية: كيف استطاعت النخبة المثقفة العربية،الصمود في وجه الأقطعات والقطائع والطفرات التي أرادت اختراقها وذبح تراثها، عبر تاريخها الطويل منذ عهد العثمنة، مرورا بالزمن الكولونيالي (الانبعاث والتنوير)، إلى زمن التحرر والتحديث، وأخيرا زمن كشوفات الحداثة البعدية (التحرك محليا والتفكير كوكبيا) ؟

دلنا الدرس التاريخي، أن العقل العربي أفاق لأول مرة على حياة القلق والخوف والريبة والشك من الغد والجهل بالمستقبل وعدم وضوح الأهداف، عدم الثقة بالتراث أي الذات العربية الأبجدية، هذه الذات، بعد أن عاشت لحظات شبه نرجسية في العصر الإسلامي والأموي والعباسي، مع نفسها لحظات سيكو – إبستيمية تعكس بقوة ووضوح -مركزية -هذه الذات المفكرة، كعلامة أكيدة ومضيئة في تاريخ الفكر الإنساني، وعندما نفذ ما كان يعرف بحماية دار الإسلام زمن العثمنة، " وجد العقل العربي نفسه مكتوف الأيدي لا يعرف ما يفعل ولا كيف يتعامل مع هذا الوضع الجديد، الذي يتطلب الحكمة في القرار وفي إدارة شؤون البيت، لم يحدث هذا عندنا"[6].

لم يتشكل إذن، في مخيال العقل العربي هذا المستوى من الوعي الذي يسمح للظهير العربي أن يقدم نفسه كأمة واحدة أمام الآخر، ولم يعد متوقعا بعد ذلك أن يمسك العقل العربي، مصيره ومصير أمته بيده، فلقد أصبح موضوعا التاريخ كولونيالي، وحتى بعد سنوات التحرر ورهان التحديث وراهن الحداثة وما بعدها هذه التحديات وغيرها ليست أكثر من اختبارات تاريخية

انتهت بالفشل، لم يدرك من خلالها العقل العربي، كيف بإمكانه أن يفهم الواقع العربي ويكتشفه كحقيقة طهرانية(صافية ونقية).

إذن وضعية الفعل الفكري (المنجز المعرفي) وانسرابه في الفعل الاجتماعي ورسوخه أو تبنينه، في الأشكال الاجتماعية القائمة، ووعيه بذاته (النحن العربي) وبالآخر المختلف عنه كانت ولا تزال مسألة غائبة أو مغيبة، باحثة عن الطريق، وطالما أن العقل العربي شق طريقه منذ البداية، كما أوضحنا باستهلاك الفعل الفكري لا امتلاكه، استئجاره لا ابتكاره، كان ينتظر الإكراميات والصدقات لأن تكون حلا سحريا ناجعا يتفاعل مع نسيج الحياة الاجتماعية العربية التي ذاقت ويلات الجرح والتعديل، التجارب والأقطعات وإصلاح الإصلاحات، وانتهى الأمر لأن تتحدد أزمة المجتمع العربي في نهاية المطاف أزمة الأفكار، كما يقول مالك بن نبي: أفكار ميتة أو أفكار مسمومة، حلت بهذا المجتمع، أفكار موضوعة حلت محل الأفكار المطبوعة، "هي أزمة ليست عارضة، وإنما مرض تاريخي وراثي كامن، ومن شأن هذا الحال أن تصبح الحقيقة الفكرية في اغتراب عن الحقيقة الاجتماعية، كما تصبح عملية افتكاك وغزو الموضوع"[7]، كما يقول غاستون باشلار (Gaston Bachelard) (1884–1962)، محل شك لأن العقل الغربي هو من أصبح يتحكم في– رؤية - العقل العربي لواقعه الاجتماعي .

طالما أن الفكر يبقى الوعاء الحامل لهموم المجتمعات العربية وتطلعاتها حري بنا من خلال هذا البحث أن نتساءل عن ظهور النخبة المثقفة، عن مجالات تموقعها الوظائفي في خريطة مجتمعنا العربي، خصوصا أقول في هذه المرحلة الراهنة، مرحلة العولمة التي تعد من أخطر المراحل التاريخية بالنسبة للمجتمعات التابعة، نظرا لما تحدثه من تغير في طبيعة علاقة الفكر بالواقع تجاه الكثير من المسائل الهامة في هذه المجتمعات ومنها الخصوصية الحضارية والهوية القومية ودور ومكانة المفكر العربي وموقفه في التكلم في القضايا المحلية والعالمية، إذ كيف يمكن المحافظة على خصوصية ثقافية عربية - صافية ونقية – أمام تأثيرات العولمة بشكل عام، المترافقة مع جملة أطروحات ونهايات تؤسس وتأدلج لقاعدة التحرك محليا والتفكير كوكبيا.

إذن ما وضعية المجتمع العربي من خلال الممارسة اليومية للفعل الثقافي العربي إن وجد في هذه المرحلة؟ كيف يمارس هذا الفعل؟ ما هي أشكاله واتجاهاته؟ ما مرجعيته؟ ما هي أزمته الفعلية وهل المنجز الثقافي العربي مشتغل بالهم العربي العام؟ أم منشغل عنه؟ ولماذا يا ترى؟ هل النخبة المثقفة العربية تتصرف بمسؤولية في عملية إنتاج الفكر؟ أم أنها حاكم لا يحكم وهذا قدرها التاريخي المقرر منذ زمن؟ ثم ماذا بعد حراك الشارع العربي اليوم، نحو الثقافة المضادة، هل الثورات العربية التي صنعتها الجماهير المنتفضة، تعد إعلانا عن نهاية المثقف الطليعي؟ وأن المجتمع العربي أدرك نفسه يتيما مرة أخرى، أي بدون نخبة تأخذ بآماله وتطلعاته ؟ طالما أن الجزء يتحرك في سياق الكل وأن هذا الإسقاط له مبرره الإبستيمولوجي، فإن هذا ما يجعلنا نصطدم بحقيقة أكيدة، هي أن المهاترات والهلوسات والتشنجات، التي تمزق وحدة النخبة المثقفة العربية، ومحاولات التسلسل والتغلغل التي تخترق أسوارها هي واحدة نسبيا هنا وهناك، وربما لا تختلف إلا في المدى والنطاق.

ثانيا. المثقف العربي أمام خيارات وإشكالية البحث عن نموذج

مما عرضنا إليه في المقاربة الموضوعاتية نكتشف، أن المثقف العربي لم يجرؤ على فعل جريء في مستوى برنامج معين، يجيب عن الحاجات والطلبات الملحة باستمرار، بسبب الهوة الموجودة بينه وبين صناع القرار من جهة والمجتمع من جهة ثانية، الشيء الذي رسخ حالة الاستقالة القصدية أو اللاقصدية بالنسبة للمثقفين العرب، في التواصل العضوي مع عديد من القضايا المهمة - الكارثية - التي تجاريها المجتمعات العربية، حتى قيل أن المجتمع العربي الثائر أدرك نفسه (اليوم) يتيما مرة أخرى، بدون سند معنوي أي بدون مثقفين وطلائعيين، مما اضطره الأمر إلى صنع ثقافته الخاصة/البديلة - ثقافة الثورة - بدلا من ثقافة المثلجات التي أمنت الجماهير العربية بكثير من الأمنيات والتطلعات ولم تحقق شيئا، والبارحة كما اليوم، أدرك المثقف العربي نفسه أمام خيارات

مسبوقة بحالة الكبت والهزيمة والإحباط والتطبيع (الفكر المبتذل والفكر المهزوم)، هذه الوصمة التي رافقته منذ زمن فوجد نفسه، ينصهر يوما بعد يوم وتجربة بعد تجربة أمام خيارات يكون من المجدي مقاربتها، ترى ما هي خيارات المثقف الشرعي العربي اليوم؟ وهل تمثل الحل؟ بعد المزلات والأخطاء التي ذهب ضحية لها في تاريخه الطويل؟

1. المثقف العضوي

المثقف العضوي في فكر غرامشي هو صاحب مشروع ثقافي يتمثل في "الإصلاح الثقافي والأخلاقي في المجتمع، سعيا وراء تحقيق الهيمنة الثقافية للطبقة العاملة بصفة خاصة وللكتلة التاريخية بصفة عامة ككتلة تتألف في الحالة الإيطالية لعشرينات القرن العشرين، المثقف العضوي هو الذي لديه القدرة على صياغة مشروع إصلاحي.

شكل تفكير غرامشي في مسألة "المثقف العضوي" تجديدا جريئا داخل الفكر الماركسي استحق عليه غربة فكرية وسياسية وإخفاء لجل نصوصه لمدة ثلاثة عقود من طرف قادة الحزب الشيوعي الإيطالي. فكر غرامشي بمرجعية جديدة أساسها الموضعة التاريخية لدور المثقف في التغيير ما دام أن الصراع بدول أوربا الغربية- بعد فشل الأحزاب الشيوعية بهذه المنطقة في تحقيق أهدافها- هو صراع على الأجهزة الثقافية والإيديولوجية (مدرسة، كنيسة، إعلام...) وليس صراع على الجهاز السياسي للدولة وخاصة أجهزتها القمعية (شرطة، جيش).

في سياق آخر حري بنا أن نتساءل حول وعي النخبة المثقفة في الخصوصية العربية مدى وعيها/التزامها في فهم بنية المجتمع العربي خارجيا وفق ما تشعر به داخليا -الوعي الإبستيمي- من خلال إنتاج نسق علمي يساهم وبفاعلية في تشكيل وتوجيه مختلف أنساق المجتمع العربي تنمويا فيكون المثقف العربي هو- المثقف الملتزم- الذي قال به سارتر، وإن هذه المساءلة لها مشروعيتها التاريخية والواقعية، خاصة عندما نعلم أن البنية الاجتماعية العربية اليوم تمر بمرحلة توثب - إصلاحي -واسع النطاق، نتيجة للاختراق الغربي، وتأثيرات العولمة الاتصالية الغربية بشكل عام على البنى الاجتماعية العربية، التي تفرقعت من أقصاها إلى أقصاها في ثورات وانتفاضات. فهل يؤثر هذا الشكل الجديد من الاختراق في مسألة الارتباط العضوي/الاجتماعي للنخبة المثقفة العربية (المثقف العضوي) الذي قال به عالم الاجتماع الإيطالي أنطونيو غرامشي(1891-1916) (Antonio Gramsci)، في البنية الاجتماعية العربية بشكل خاص؟

2. المثقف المراوغ

يعد النموذج من أخطر النماذج العربية السائدة التي ساهمت في تخريج سلالة من أنماط المثقفين المراوغين في وطننا العربي، إن المثقف المراوغ هو ذلك المفكر الزئبقي الذي يجيد فن إمساك العصا من الوسط، يقول جلال أمين عن هؤلاء: " من أسوأ من صادفت من المثقفين الذين يشاركون في الكتابة في الأمور العامة وفي التعليق على ما يجري من أحداث، نوع يتمتع بدرجة عالية من الذكاء، كما أنهم بالغي الطموح، يدركون بذكائهم سوء الحال وشيوع السخط، كما يعترفون في قرارة أنفسهم بإخلاص المعارضين ورغبتهم الحقيقية في الإصلاح، ولكنهم أيضا بطبعهم قليلو الثقة بالناس وشديدو الاحتقار للجمهور وشديدو العجلة، فهم قليلوا الأمل في أن تنصلح الأحوال بسرعة بحيث ينالون ما يؤهلهم لهم ذكاؤهم من مناصب ومسؤوليات وربما مر عليهم في الماضي زمن لم يجلب لهم فيه ذكاؤهم ونشاطهم إلا الحسرة فآلو على أنفسهم ألا يعيدوا الكرة فعزموا على استخدام ذكاؤهم بما يدر عليهم بالنفع والنفع السريع"[8]،إن مثقف الطريق الوسط ذلك المثقف الزئبقي المراوغ، يعرف جيدا أن نجاحه في الوصول إلى ما يريد، يتطلب منه ذكاء وحيطة وحذر ويحدد جلال أمين صفات هؤلاء في النقاط التالية :

1) البحث عن مشاجب : بمعنى الهروب من مواجهة المشكلة المطروحة وإيجاد الحلول لها وإلقاء المسؤولية على مشاجب أخرى، فإذا كانت القضية المطروحة مثلا، هي أسلوب التفاوض مع إسرائيل بالشروط الراهنة التي تعظم المكاسب الإسرائيلية، يكتفي المفكر المراوغ بالتعبير عن أسفه للتفكك الذي أصاب الصف العربي، بل يفيض في "شرح حالة الضعف العربي الراهن من دون أن يطرح أية رؤية للخروج من هذا الوضع المتردي وتحقيق درجة أعلى من التكافؤ في العملية التفاوضية الجارية"[9].

2) المراهنة على عدم وجود بديل : فهو لا يسعى لطرح أية رؤية بديلة أو مستقبلية بل يركز على انعدام البدائل، حيث إن كل البدائل الراهنة الممكنة أسوأ أولا تختلف كثيرا عما هو قائم أو جار، إذ القناعة كنز لا يفنى في تصور المفكر المراوغ، فلماذا الامتعاض والبحث عن البديل؟ إن المثقف المراوغ الزئبقي، في عجلة من أمره، والبحث عن البديل مسألة تستغرق وقتا لا يراهن عليه، ولذا نجده يفضل سلاما مهينا، على الدخول في معركة، فقول كلمة حق عند سلطان جائر، قد تتسبب في تعطيل غير مرغوب فيه لعملية الصعود الاجتماعي، والمطلوب دائما هو البحث عن العاجل وليس الآجل.

3) استخدام مصطلحات جديدة مراوغة: هي خاصية المثقف المراوغ حين يطرق قضايا مجتمعه وعصره،مبتدعا في ذلك نسقا مفاهيميا، يتماشى وقواعد اللعبة الفكرية المسطرة، موظفا مصطلحات جديدة ذات وقع محمود على الأسماع، وبالتالي إتقان اللعبة التفكرية والإبداعية من خلال حبكها بالمفاهيم وسبكها بالمصطلحات والمقولات البراقة

4) عدم التسرع في الحكم: قبل توفر البيانات الكافية، خصوصا إذا كانت هذه الأحكام موجهة إلى الطرف الآخر، إن المثقف المراوغ يخشى الزمن الذي تنعدم فيه آليات المحاسبة الفكرية وتستعمل فيه توبة المثقفين- تنازلهم عن أحكام مسبقة – لذا يختص المثقف المراوغ بالحكمة والتعقل والتروي والتريث في استنباط الأحكام، بعد أن يتم إجراء تحقيقا كاملا عن نوايا الطرف الآخر، بعبارة أوضح إن المثقف الزئبقي يؤيد على الأقل في الوضع الراهن سياسة تفاوضية مع –الآخر- بضمير مرتاح، فتكون الوسطية سيدة لموقفه أمام الآخرين"[10].

3. المثقف الترزي

يطبع نوع من المثقفين أقل موهبة وتأثيرا من المثقف المراوغ/الزئبقي، فالمثقف الترزي يكتفي عادة بما يرد إليه من تعليمات إنه ملكة لنوع من المفكرين، يجيد السير في الركاب ويمنح ولاءه وموهبته لمن يقبض على زمام الأمور، وهو دائما في حالة جاهزية، "لتفصيل مشروعه الفكري بحسب مقاسات السلطة السياسية الراهنة، فهو مفكر كل العصور يجيد حياكة ثياب النظم وتشريعاتها ويزوقها بأحدث الأزياء الراقية المتماشية مع الراهن"[11]، المثقف الترزي، مفكر عصري بكل المعايير لا يؤرقه ماضيه السياسي أو الفكري فهو دائما في الخدمة للسيد الجديد، القابض على قيادة الأمور، وفي هذا السياق سئل أحد المثقفين المنظرين للفاشية في ايطاليا، ما هي مقومات الفكر السياسي الفاشي، فتردد المثقف برهة، ثم هداه ذكاؤه بألا يتورط في أي تحديد لمبادئ وأسس قابلة للتغيير كل يوم، وخرج بإجابة: إن الفاشية هو ما ينطق به الزعيم اليوم.

4. المثقف المقاول

مثقف مقاول الأفكار، أشبه بالمروج الرأسمالي في مجال ترويج الأفكار والمفاهيم، فهو مفكر يجيد تجهيز المشاريع البحثية بالشروط المناسبة وبالعبوة الملائمة،هو الوكيل المعتمد لاستيراد أنواع معينة من الحزم الفكرية والبحثية بالمواصفات المناسبة، لترويجها في السوق إنه يلعب وظيفة المقاول الذي يتولى تشغيل المشروعات البحثية – الأجنبية من ناحيتي التصميم والمرجعية، "مقابل عمولة مالية مباشرة أو عينية، تأخذ شكل استغلال فائض القيمة الفكري"[12] للباحثين الشبان، إن المثقفين المقاولين من هذا النوع، هم الوسطاء الفكريين والوكلاء المعتمدين بين الداخل) المحلي(وبين مركز– الفكرية الدولية -وهم يملكون الكثير من مفاتيح الإغراء

والترغيب والإفساد، كما أنهم ساعين لتكوين أجيال جديدة من الباحثين والمفكرين، بمواصفات جديدة، تتناسب وجدول أعمال النظام الفكري العالمي الجديد، حتى وإن تناقضت مع الثوابت الوطنية/المحلية والقومية.

إن المنهج المفضل لدى هؤلاء المثقفين المقاولين هو تدريب الباحثين الشبان على منهج الوضعية المنطقية، في صياغاتها المبتذلة والاستناد إلى المناهج التجريبية القائمة على البحوث والاستقصاءات العزلية الميدانية المصممة بمناهج غربية وهكذا يتم التأسيس لجماعة من المفكرين يمثلون فرعا للاستشراق الغربي بنقوش عربية وتصل الغاوية للباحثين الشبان مداها عن طريق التلويح لهم بالمال والجاه، المنح، السفريات المؤتمرات، النشر وتزيين الأمر لهم على أنهم يمثلون التاريخ القادم بينما الآخرون يمثلون الماضي البائد والتاريخ المنصرم.

5. المثقف الإجتراري

هذا النموذج من المثقفين يركن إلى الكسل الفكري ويحاول إعادة اجترار النصوص والمنجزات الجاهزة، تضعف عنده خامة الاجتهاد وروح الابتكار، مثقف يعيش أسيرا لصياغات وقوالب جامدة تسترجع إنجازات السلف الصالح من دون تجديد أو نقد أو تمحيص، يعيش حياة سكولاستيكية لماضيه بكل المواصفات، يبحث عن مادتها في خزانة الفقه القديم، الحلول والمشاكل التي يفرزها الواقع المعاصر، تحدث عنها السلف، حقا أن مأزق المفكر الإجتراري يكمن في أنه مفكر يسقط الماضي على المستقبل ويتذكر الماضي.

6. المثقف الانتحاري

برز هذا النموذج من المثقفين الانتحاريين كرد فعل على تردي الحياة الثقافية والسياسية في الوطن العربي خلال الحقبة النفطية، هؤلاء المثقفين اتخذوا موقفا صريحا بالانعزال الكامل عن الحياة اليومية (في طابعها المادي) وعن صخب المحافل والمنتديات الفكرية التي تبحث عن مواقع الضوء، والانصراف إلى الجهد البحثي الأصيل في إطار منجزات ومشاريع، حدد من خلالها المثقف لنفسه شروطه المرجعية في التفكير، وقد وصل الموقف الإحتجاجي الرافض مداه لدى بعضهم بحياة انعزالية قاسية، مصر (جمال حمدان) العراق (حسن محمد سلمان)، وعلى الرغم من النهاية المأساوية لهؤلاء فإن مصيرهم الانتحاري كان رد فعل طبيعي، على كل ما هو مزيف وطارئ ودعائي ومبتذل في الحياة الفكرية والاجتماعية، سيبقى هؤلاء وآخرون رمزا للفكر الأصيل الذي يهتدي بالحق والتراث، ويرفض العيش على إكراميات وصدقات الآخر، يرفض الاستئصال والاستئجار من الغرب المهيمن، كما سيبقون رمزا للبعد عن الأضواء الإعلامية الباهرة التي تصنع من الأقزام عمالقة وتلف بالصمت خيرة الرجال وسيظل أمثال هؤلاء ضميرا حيا لأمتنا لا يموت".[13]

7. المثقف الكوني (الكوكبي)

مثقف ينفي في نموذجه الصدام مع الغرب (الاستعمار والإمبريالية) ويؤسس مشروعه فقط على مقياس النجاح المادي في مجالات النمو والتقدم والتحديث والعصرنة، حيث يدعو إلى عملية تحرر عملاقة من عقدة تجربة وطنية وأخرى غربية، المثقف الكوكبي، يدرك أن تحرر جماهيره، قد صار في حد ذاته فعل عالمي/كوني وليس مجرد فعل وطني، إن المثقف الكوني - حاكم إنساني- لإعادة بناء العالم العربي وتشكيله أو موقعته ضمن لوحة القرية الصغيرة وهو بالتالي يتصور فعالية وطنه في إطار انخراط عالمي تحت عناوين: التعايش والحوار والتصافح الحضاري للشعوب والأمم.

بيد أن المثقف الكوني – نموذج الساعة- يصطدم بلا شك في مشروعه بمسلمات: العزل والتمييز بين الشعوب وبالتالي وجوب مراعاة الخصوصية واحترام تضاريس الوطنية وهذا يشكل له معاناة حقيقية إذن يبدو أن الكونية، أطروحة ثقيلة في مصفوفة العقل العربي: عقل يسير برأسين خصوصي/كوني، فكيف يمكن أن يوفق؟

لم يتشكل إذن، في مخيال العقل العربي هذا المستوى من الوعي الذي يسمح للظهير العربي أن يقدم نفسه كأمة واحدة أمام الآخر، ولم يعد متوقعا بعد ذلك أن يمسك العقل العربي، مصيره ومصير أمته بيده، فلقد أصبح موضوعا التاريخ كولونيالي، وحتى بعد سنوات التحرر ورهان التحديث وراهن الحداثة وما بعدها، هذه التحديات وغيرها ليست أكثر من اختبارات تاريخية انتهت بالفشل، لم يدرك من خلالها العقل العربي، كيف بإمكانه أن يفهم الواقع العربي ويكتشفه كحقيقة طهرانية(صافية ونقية).

إذن وضعية الفعل الفكري(المنجز المعرفي) وانسرابه في الفعل الاجتماعي ورسوخه أو تبنينه، في الأشكال الاجتماعية القائمة، ووعيه بذاته (النحن العربي) وبالآخر المختلف عنه كانت ولا تزال مسألة غائبة أو مغيبة، باحثة عن الطريق، وطالما أن العقل العربي شق طريقه منذ البداية، كما أوضحنا باستهلاك الفعل الفكري لا امتلاكه،استئجاره لا ابتكاره، كان ينتظر الإكراميات والصدقات لأن تكون حلا سحريا ناجعا يتفاعل مع نسيج الحياة الإجتماعية العربية التي ذاقت ويلات الجرح والتعديل، التجارب والأقطعات وإصلاح الإصلاحات، وانتهى الأمر لأن تتحدد أزمة المجتمع العربي في نهاية المطاف أزمة الأفكار كما يقول مالك بن نبي : أفكار ميتة أو أفكار مسمومة، حلت بهذا المجتمع، أفكار موضوعة حلت محل الأفكار المطبوعة، هي أزمة ليست عارضة، وإنما مرض تاريخي وراثي كامن، ومن شأن هذا الحال أن تصبح الحقيقة الفكرية في اغتراب عن الحقيقة الاجتماعية، كما تصبح عملية افتكاك وغزو الموضوع كما يقول غاستون باشلار (1884– 1962)(Gaston Bachelard)، محل شك لأن العقل الغربي هو من أصبح يتحكم في– رؤوية- العقل العربي لواقعه الاجتماعي .

طالما أن الفكر يبقى الوعاء الحامل لهموم المجتمعات العربية وتطلعاتها حري بنا من خلال هذا البحث أن نتساءل عن ظهور النخبة المثقفة، عن مجالات تموقعها الوظائفي في خريطة مجتمعنا العربي، خصوصا أقول في هذه المرحلة الراهنة، مرحلة العولمة التي تعد من أخطر المراحل التاريخية بالنسبة للمجتمعات التابعة، نظرا لما تحدثه من تغير في طبيعة علاقة الفكر بالواقع تجاه الكثير من المسائل الهامة في هذه المجتمعات ومنها الخصوصية الحضارية والهوية القومية ودور ومكانة المفكر العربي وموقفه في التكلم في القضايا المحلية والعالمية، إذ كيف يمكن المحافظة على خصوصية ثقافية عربية - صافية ونقية – أمام تأثيرات العولمة بشكل عام، المترافقة مع جملة أطروحات ونهايات تؤسس وتأدلج لقاعدة التحرك محليا والتفكير كوكبيا.

الخاتمة

بإمكان المرء أن يلاحظ من خلال هذه النماذج، أن الفعل الثقافي لم يتوقف في عالمنا العربي إنه مستمرا بحسب العوارض والصوارف في إنتاج سلالة بوتيكات ثقافية، تلوح هنا وهناك في الفعل الاجتماعي العربي، لكنها ضلت في اغتراب مستعصي، تجلت في عدة موديلات: (مثقف عالمي مثقف تراثي، مثقف اجتراري، مثقف زئبقي، المثقف الطاووس، المثقف المقاول) بوتيكات ثقافية على طبقات وتنوعات وموديلات، لكنها متفرقة ومتشرذمة لا يجمعها نظام ولا تربطها وحدة، خصوصا إذا انتبهنا إلى اعتماد هذه البوتيكات الفكرية على آلية الصدقات والإكراميات، على ثقافة الاستئصال والاستئجار من الغرب المهيمن أو الركوع في أسوأ تقدير لإملاءات السياسي الفجة، حتى أصبحنا أمام جيل كبير من المثقفين الكرائين (بلا مأوى)، الذين يكترون بالعملة الصعبة، مشاريعهم الفكرية من المحلات/البوتيكات الغربية هذا لا يحتمل؟ فماذا ننتظر من مكلماتهم وخطابتهم سوى تشويها وانتهاكا للحقيقة العربية العارضة، إنها مكلمات وصفها بعض النقاد (ثقافة غير شرعية) تفعل فعل ذلك الطبيب الذي يداوي بطريقة الكي رجلا من خشب.

المراجع والهوامش

1- حجازي أحمد مجدي، أمية المثقف العربي: الإبداع وأزمة الفكر السوسيولوجي، في الطاهر لبيب وآخرون، الثقافة و المثقف في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1992، ص 115.

2- مقاربة هشام شرابي في فهم التردد الذي شاب أولئك المثقفين اعتمدت على تفكيك وتحليل السياق الاجتماعي والاقتصادي والنفسي الذي عاشوا فيه. ارتباطاتهم الحياتية واحتياجاتهم الاقتصادية، وانتماؤهم للأغلبية المسلمة في مجتمعاتهم، كبل أيديهم وأفكارهم واضطرهم لأن يكونوا محافظين في طروحاتهم ويقوا في إطار التوفيق بين الأفكار المتضادة، أو التلفيق فيما بينها، على ذلك بقي الإرث القبلي والعائلي والديني، وما يسميه شرابي البنية القروسطية، مسيطراً على تفكيرهم، فمنعهم من القطع الثوري مع واقعهم الاجتماعي والثقافي.

3- يعد أوليفر كرومويل (1599-1658) (Oliver Cromwell) أحد أهم الشخصيات في التاريخ الإنجليزي الحديث، فهو القائد الذي استطاع بحنكته العسكرية وقيادته السياسية أن يدير الصراع المرير بين البرلمان الإنجليزي والملك وبحسمه لصالح الأول ثم يفرض تجربة للحكم البرلماني الخالص والتي كانت نموذجا لتجربة فاشلة فتعلمت منها أوروبا والبشرية عدم تكرارها، كذلك ترجع أهمية الرجل أيضا إلى أن التجربة التي قادها كانت البداية لسلسلة من الصراعات على المستوى الأوروبي بين الشعوب وممثليها من ناحية والملوك من ناحية أخرى والذي سيطر فيه الملوك بفضل مبدأ الحق الإلهي المطلق على السلطة في بلادهم.

قال عنه كارل ماركس: "إن كرومويل مثَّل في الثورة الإنكليزية دور روبسبير في الثورة الفرنسية، إضافة إلى دور نابليون أيضاً"

4- الماغنا كارتا كلمتان لاتينيتان، معناهما في العربيّة العهد الأعظم، وبمقتضى هذا العهد أُجبِر الملك جون على أن يمنح الأرستقراطية البريطانية كثيرًا من الحقوق، بينما لم ينل المواطن البريطاني العادي من الحقوق غير النَّزر اليسير، أجبر النبلاء الإقطاعيون الملكَ على الموافقة على الماگنا كارتا في عام 1215 ووقع هذا الحدث التاريخي في منطقة رِنميد، وهي سهل ممتد على طول نهر التايمز يقع جنوب غربي لندن .ويوجد هناك نصب تذكاري تخليدًا لذكرى هذا الحدث.

ومن الخطأ القول بأن وثيقة الماجنا كارتا كفلت الحريات الفرديّة لجميع الشعب، ففي القرون اللاحقة، أضحت نموذجًا يحتذى بالنسبة لأولئك الذين طالبوا بإقامة حكومات ديمقراطية وكفالة الحقوق الأساسية لكل مواطن. أما في الوقت الذي صدرت فيه، فكانت أهميتها الكبرى في إخضاع الملك لحكم القانون، وكبح جماح السلطة المطلقة.

وثيقة الماگنا كارتا Magna Carta هي أول وثيقة دستورية في التاريخ، وهي وثيقة ملكية بريطانية التزم فيها الملك جون بالقانون الإقطاعي والمحافظة على مصالح النبلاء في عام1215 م، وتُعدُّ معلمًا بارزًا من معالم تطوّر الحكومة الدستوريّة في بريطانيا، وانتفعت بها معظم البلاد الغربية في القرون اللاحقة، لأن كثيرًا من الأقطار الديمقراطيّة اتبعت نهج القانون الإنجليزي في إنشاء حكوماتها.

5- مصطلح البيريسترويكا يتعني إعادة البناء هي برنامج للإصلاحات الاقتصادية أطلقه رئيس للاتحاد السوفييتي (سابقا)، ميخائيل غورباتشوف وتشير إلى إعادة بناء اقتصاد الاتحاد.

6- غليون برهان، اغتيال العقل، موفم للنشر، الجزائر، 1990، ص 48.

7- قاسم رياض، الثقافة والمثقف في الوطن العربي، سلسلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، عدد 1992،10، ص 43.

8- محمود عبد الفضيل، المثقف العربي سعيا وراء الرزق و الجاه"، أحمد صدقي الدجاني، محمد عابد الجابري، برهان غليون وآخرون، في المثقف العربي همومه وعطاؤه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1،، 1995، ص 125.

9- زهران جمال علي، تأثير الأوضاع المجتمعية على دور المثقف العربي، مجلة الوحدة العربية، العدد 40، 1988، ص 76.

10- محمود عبد الفضيل، مرجع سابق، ص 128.

11- لبيب الطاهر وآخرون، أمية المثقف العربي: الإبداع و أزمة الفكر السوسيولوجي، الثقافة والمثقف في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1992، ص 96.

12- Attilio Monasta ;Antonio Gramsci , Prospects : The Quarterly Review Of Comparative Education , Paris , Unesco :International Bureau Of Education ,Vol Xxiii ,No 3 –4 , 1993 , p 86.

13- محمود عبد الفضيل، مرجع سابق، ص 132.